حول مربٍ شعبي كبير

المعلم الزنجي بوكر وشجونه

بقلم الدكتور احمد فريد رفاعي

٦

للحرية حسناتها ومباهجها. ومهما قالوا في كبواتها وعثراتها فانها النسيم المقيم والمتقف الأمين والساعد اليمين . الحرية اذا قُسِمت على حقيقتها واستظلّ الناس بظلها الوريف فانها تخلق منهم الخلق الهانيء السعيد فلا حروب ولا خصام ، ولا سخيمة ولا صدام

لقد اعلن التحرير للسود . وقد ترك السود كل شيء مما يذكرهم بماضيهم . . . حتى المزارع التي كانوا يعملون بها . . . . حتى الاسماء التي كان يدعون بها . . . وخلعوا اهاب الرق وجلباب العبودية واستنشقوا الهواء الطلق وتركوا الثان لكل ما يشتهون . . . . ثم عادوا ادراجهم الى مزارعهم وهم اكثر نشاطاً واوقد جذوة واشد حمية . بل ان خدمتهم الماضية لسادتهم البيض جعلتهم اقدر واكفأ . . وتركت البيض اقل جلداً واضأل مراظبة

بل ان العمل له فيه نهو يصقل النفوس كما يصقل الايدي . والناجح في الحياة هو بلا ريب العامل فيها الدءوب على الاضطلاع بتكاليفها الصبور على مكارهها الممعن مضيًّا في احتمال اعبائها

ولقد بُدىء الآن في المناقشة في ضرورة تعليم السود وفكر الجنرال ارمسترنغ وغيره في فتح معاهد لتعليم السود . . . واخذ هؤلاء السود يفدون على تلك المدارس وكلهم عطاش الى غيرها وكلهم حنين الى ورودها . . . حتى الشيوخ وهم في العقد الخامس من سني حياتهم يريدون قراءة الكتاب المقدس ليقابلوا الاقسعداء وليرقدوا في لحودهم سعداء

فاذا كان نصيب « بوكر » من تلك الحركة التعليمية وليدة الحركة التحريرية ؟

٧

حنية ممضة صممت بأثرها السيء نفسية طفلنا الوثابة وروحه الهمة بالعلم والتعليم . تلك الحنية هي موقف زوج والدته . لقد فتحت مدرسة في « كناوها » وكان صبيّنا يشتغل حينذاك في « الملاحة » ويظهر ان الزوج تبين من عمل بوكر في منجم الملح في عدة الشهور التي اشتغل فيها به انهُ مصدر نفع يدر عليه صباية من المال هي بثابة أخلاف رزق لديه . . .

يقول بوكر : « لما فتحت تلك المدرسة ابوابها قرر الزوج انهُ لا يستطيع التخلي عني

وكان قراره سحب غيوم تراكمت على كل آمالي ومطامحي. وشدّ ما عانيت من جراء قراره لان مكان عملي كان على طريق المدرسة حيث كنت اشاهد التلاميذ يروحون ويغدون اليها

وزادتني تلك الحية تصميماً على ان اتعلم شيئاً على اي وجه وبأية طريقة . فاقبلت برغبة شديدة على امتلاك ناصية كتاب التهجية ولقد واستني واسدني في خيبتي تلك وبحثت بكل ما في مقدورها على ما يهيجني وعملت جهدها على ايجاد وسيلة لتعليمي ووقفت بعد برهة من الزمن في اعداد المعدات لتحصيل دروس ليلية بعد قيامي بساعات العمل نهاراً . وكنت شديد الترحيب بتلك الدروس الليلية واقبلت عليها اتما اقبال وحصلت في خلالها اكثر مما يحصل التلاميذ في ساع نهارهم ؛ ولقد كان لي من تجاربي فيها ان آمنت بجزيل جدواها وعميم نفعها وعملت فيما بعد على تعميمها في هامبتون وتسكيجي

« على ان قلب الصبي كان نزاعاً الى ضرورة الذهاب الى المدرسة النهارية ولذلك لم اترك فرصة تمرّ دون اقتناصها الى ان فزت اخيراً بطلبي وسمح لي بالذهاب الى المدرسة نهاراً بضعة شهور على شريطة ان استيقظ مبكراً واشتغل في الملاحة حتى الساعة التاسعة صباحاً ثم اعود مباشرة اليها بعد الظهر واقضاء العمل المدرسي لاشتغل فيها ساعتين أخريين ..... »

من جميل ذكريات بوكر في هذا الصدد ما كان يلقاه من صعوبة في الوصول الى المدرسة في التاسعة تماماً وهي بعيدة عن مكان عمله الذي حتم عليه البقاء فيه الى التاسعة فماكان يعمل ؟ لقد كان في مقر عمله ساعة حائط وكان زملاؤه العمال جميعاً يعتمدون عليها في ضبط ساعاتهم وفي امور عملهم . وكان بوكر مضطراً للحاق بموعد مدرسته وهو مضطر ايضاً للبقاء في العمل حتى التاسعة وكان ميله الطبيعي للدرس وتحصيل الدرس والمواظبة على حضور الدرس شديداً وقوياً . ففتقت له الحيلة أن يقدم عقربي الساعة دقائق معدودة تمكنه من الوصول في الموعد المضبوط الى فناء المدرسة . وأخيراً لاحظ العمال احتلال الساعة واكتشفوا فعلته وقفل باب الساعة باحكام ! !

٨

كان ذلك . وكان ايضاً اتصاله بخدمة سيدة طيبة القلب ولكنها شديدة المراقبة دقيقة العناية بالنظافة والنظام وهي زوجة الجنرال لوز زوفير . لاحظت ميله الى التعليم وتزوعه الى التحصيل فعمدت على مساعدته في لحظات فراغه على فهم ما استغلق عليه . ثم كان افتتاح مدرسة همبتون التي افتتحها الجنرال ارسترنغ وكانت تبيح للسود العمل لاكتساب نفقات تعليمهم . وهي بعيدة عن قريته بعداً شاسعاً . اذ كانت تبعد عن مالدن خمسمائة ميل. ولكن النفوس العظيمة تستسهل الصعاب من الامور ، والارادات القوية طلاعة لكل

تنايا متسلقة للربى والعقاب ... بل أن النفوس العظيمة لا ترعى الا في الواحات الخصبة المواتية في صحراوات الحياة المحرقة وهي لا ترضى الا بالكلأ الغني والثمر الجني والطعام الشهي !

اجل . لم يكن في حوزة فتانا نقود تعينه على قطع مرحلته . فلماذا لا يقطعها بارادته ولماذا لا يشتغل اثناء سفرته فاما ريع يمكنه من ركوب قاطرة السكة الحديدية واما امتطاء لعليه وركوب لقدميه ... وقام من توه ولحظه يقطع المهامه والقفار في البكور والاسحار ويشتغل في الليل والنهار الى ان وصل الى مدينة رتشمند وهو خالي الوفاض وقد ذاق الامرين ورأى الواحاً فوق حفرة الشارع العام وقد عبث الكرى بعاقد الاجفان فانتظر هنيهة حتى انقطعت السابلة ودفن نفسه في تلك الحفرة ليريح بالنوم جسمه اليقظان . وبحث عن عمل في يومه التالي ووفق الى سفينة تفرغ حمولها فواظب على العمل فيها نهاراً والنوم في الحفرة ليلاً الى ان وفر بارادته وعمله واكبابه ومواظبته ما مكنه من السفر الى همتون بالسكة الحديدية طبعاً . . . . والى ماهو اكثر من ذلك الى توفير نصف ريال فوق ما يريد

٩

جميل جداً ان نقرأ اعترافات بوكر عن اثر دفة مسز روفنر من نفسه ، ومبلغ عطف والدته عليه ، ومقدار تلهفه على التعلم ، وشدة رغبته في ان يكون كاولاد البيض لباساً وهنداماً ، وعلماً وعرفاناً ، وشغفه بأن يلبس قبعة مثلهم . . . وجميل ان نقرأ احتذاءه « القبقاب » وارتداءه ما يشبه القماط . . . . وجميل ان نقرأ ما خطه عن عوزه وفاقته . . . ولكن اجمل من ذلك كله ان نؤمن بان نجاحه كان بسبب ارادته !

لقد وصل الى همتون بادي الفاقة زري الحالة فكلفه اساتذة المدرسة تنظيف حجرة الدراسة فسرعان ما اخذها وكنسها مرة وثانية وثالثة ورابعة . . . . . .

أجل لقد كنس الغرفة أربع مرات فرأوا من هذا المخلوق العجيب عملاً عجباً عطف القلوب الجوامد عليه فاكبروه مع زراية هندامه وقبّلوه مع حقارة شأنه

بل ان نفس هذا التصميم في اتقان كل ما يكلف اداؤه ، وتلك العناية الطبيعية المتغرسة فيما بين جنبيه لها السر في قبول مسز روفنر له دون غيره ، وفي بقائه في خدمتها مع صرامتها دون سواه ، وهي المعروفة بتغيير الخدم بين حين وحين

وربما كان نفس هذا التصميم في اتقان كل ما يكلف اداؤه مما صغر او عظم ، قل او جل هو السر الوحيد في نجاحه في مهنته في الحياة وفي فوزه في رسالته للانسانية عامة وبني جنسه خاصة

انظر ما يقوله بوكر في هذا الصدد بالحرف الواحد : لقد مسحت حجرة الالقاء ثلاث مرات . ثم امسكت بريشة التنظيف ومررت عليها اربعاً

« اجل لقد مسحت الخشب الذي حول الحائط ، وكل مكتب ومنضدة وقطر وكل قطعة من الرياش والأثاث ونقلتها من مكانها الاصلي ونظفتها كما نظفت كل ركن من اركان الحجرة تنظيفاً تاماً . وكنتُ اشعر بان مستقبلي يتوقف على الاثر الذي سأتركه من نفوس اساتذتي في تنظيفي للحجرة . وعند ما انتهيت من مهمتي ابلغت ذلك للمديرة وهي سيدة من « بنكا » تعرف اين تنظر الى موضع الغبار . فلما ابلغتها دخلت الحجرة وفحصت ارضها واثاثها واسكت بمنديلها ومسحت به الخشب في الحائط والمكتب والمقاعد . ولما عجزت عن العثور على اثر من الغبار لا على ارض الغرفة ولا على اثاثها قالت في سكون « اظن انهُ في الامكان دخولك للمعهد ... »

« ولقد كنتُ ساعتئذٍ اسعد مخلوقات الله على وجه البسيطة . لان نيل تلك الحجرة كان بمثابة امتحان لقبولي بالجامعة . واني اعتقد انهُ ما من شاب دخل امتحان القبول في الالتحاق بجامعة هارفرد او ييل واحس بسرور اكيد كالذي احسست به

« لقد مررت في امتحانات كثيرة بعدئذ ولكنني كنت اشعر دائما ان ذاك الامتحان كان أدقَّ امتحان مررت فيه . . . . . اه

ثم انتقل تلميذنا الكبير في اعترافاته الى بيان نوع حياته في هيتون . وكيفية صداقته لمس ماري ماكي الناظرة وتقديره لخدمات الجنرال ارمسترنج صاحب ذاك المشروع وبيان اوجه كدحه واجتهاده في العمل ليتسنى له اتمام الدراسة . وعطف اخيه عليه . ووفاة والدته الرؤوم مما تجده مفصلاً في تاريخ حياته الذي كتبه بنفسه بعنوان « من العبودية » مما لا يخرج عما اقتبسناه لك في تلك اللمحة الموجزة

والذي يهمنا توجيه النظر اليه بلغ حرص الرجل العظيم على اتقان كل عمل يعهد اليه به مهما كان نوعه ومهما كانت طبيعته . ليس بهام ولا كبير خطر ان تكون كاتباً او واعظاً . قائداً او طبيباً . خادماً او زارعاً . صانعاً او عاملاً — مهما كانت طبيعة اعمالك — وانما الهام ان تؤديها على أكمل الوجوه وان تخلص في القيام بها . الهام ان تشعر بمسئوليتك في اتقانها وتخريجها كما ينبغي وكما يجب . اذا فعلت ذلك وآمنت به في صميم نفسك فأنت الرجل العظيم حقًّا

لا عاب ولا نقيصة في نوع العمل وانما العاب والنقيصة في اداء ذلك النوع من العمل على وجه ناقص وبروح فاترة وهمة خامدة . كل شيء يتوقف على الكيفية لا على الشكل للعمل . في الاخلاص لا في المظهر . في الجوهر لا في القشور

ولعل هذه الصفة دون غيرها هي اساس بطولة العظماء لأن مصدرها الايمان بالرسالة . والايمان هو اس النجاح ورائد التبريز والتفاني في الاخلاص والمواظبة على العمل والمضي في سبيل تحقيق الغاية والاستهانة بكل صعب والصبر على المكاره واحتمال كل اذًى لاجل المبدأ او في سبيله

١٠

حياته الدراسية والعملية في عمقين كانت صحيفة مشرقة له ، وقدوة خليقة بالاكبار من كل طالب علم وعمل . فلقد استهان بشتى صنوف المتاعب من عوز وإضاقة ، وعسر وفاقة ، وتصر يد عن كل ما يقيم النفس ويكبي الجسد ، وحيرة المعدم وعجز ذي المتربة . . .

صعوبة في كل شيء . في تحصيل القوت . وفي التسربل بالرث من الثياب . وفي اقتناء الكتاب والمراجع . وفي دفع اجور الدرس والاقامة . بيد ان هذه الصعوبة البالغة في حرجها وعسرها . وتعبها وعبئها . وجسكها وقتادها . وحلكها وظلامها — كانت البوتقة الحكيمة ، والمثقفة الرشيدة ، والمربية السديدة . فقد خرجت منه الشامل الدءوب وكونت منه حمّال الاعباء الصبور . وأضجت فيه الارادة النافذة المضاء الحادة الغرار . وأمت لديه صفة الرجولية الجلدة المتينة بما يعتور سبيلها من كؤود العقبات

اجل لا يكوّن العظيم تدريبا كالذي طريقه من جبال الحيات وتلال الفشل ولا ينضجه الا ما يلاقي في سبيله من المرتفيات الوعرة المستعصاة ولا يتم لديه صفة الرجولية الجلدة الا ما يعانيه من المكاره والنقص ومن تباريح تكاليف الوجود وأوضاع الاجتماع وتقاليد الوسط وحطام الحياة

ألا ان في الشدة والعنف . في الفاقة والاعواز . في المتربة والضيق . في الدفع والجذب . في العدم والجدب — في هذا كله تفتق حيلة الانسان ويد الانسان من الظلام نوراً ومن الفاقة ثراء . ومن العدم عملاً . ومن الجدب خصباً . ومن العدم وجوداً . ومن السكون حركة . من الرمال جناناً ومن الاطفال رجالاً ومن الرجال ابطالاً !

لقد اضطر بوكر الى بيع بذلته الوحيدة الى رهن ساعته . في حياته الاولى . ولما أتم دراسته ونال من اسباب الثقافة والتهذيب ما ايقظ في نفسه الشعور بانه انسان . وانه خلق ليكون انساناً نافعاً احس بعبء عظيم ملقى على كاهله . . . . . ذلك ان يعمل ما في مقدوره ليجعل رفاقه السود مثله في الانسانية بدلاً من تركهم كتلاً مهملاً كبعض المقتنيات . او دونها قدراً وخطراً

١١

ما الذ نعمة العمل . بل ما الذ نعمة الشعور بالواجب ! الا ان نعمة الشعور بأداء الواجب مصدرها راحة الضمير . والضمير اما أن يكون جنة هامدة لا حراك بها ولا حياة فيها ولا نبض ولا حرارة . . . كلا بل يكون وقتئذ مصدر رأمحة عفنة يتقزز منها الجميع . . . . وإما ان يكون جنة نعيم أو نار الجحيم . ولعمركم ليس افضل ولا انبل من سعادة الضمير أو عذابه . سيان طبعاً هناء الضمير أو عناؤه لانهما دليلان على الحياة . على النبض والحرارة . على الحساسية والشعور . على المحاسبة والاحتكاك واخيراً على الخلق والكرامة

والايمان والعدالة . على فهم ما يجب وما لا يجب ، وتعرف ما يليق وما لا يليق

ألا ان الامة التي يحس قادتها بما عليهم من واجبات وتبعات ويجعلون من حياتهم العملية مثلاً ناطقاً وقدوة محتذاة لهم وحدهم عنوان نهضتها ورمز حيويتها ومصدر سعادتها وموئل قوتها . ذلك لأن حياة الامم بالعمل قبل اي اعتبار . وبالعمل وحده تقاس الكفايات وتمتاز الشخصيات . ولشعب عرف بما عليه من واجبات وتبعات اقدر شأناً في معترك الحياة من شعب صارخ بما له من حقوق . لأن الكلام يضيع في ارجاء الهواء ، واما العمل فحركة وضوضاء ، وحياة ودماء . وتقدم وارتقاء

وقد كان « بوكر » مثلاً اعلى لتعرف الواجب ، وقدوة سامية للعمل المنتج — والحركة الدءوبة

لقد فتح مدرسة لتعليم ثلاثين طالباً من لا شيء . فتحها بأقل من ريال ورهن ساعتهُ وواصل معداته بمراحته . وساعد كل اسود وسوداء على التعلم في مدرسته او في هيتن . وعمل على اتاحة فرص النجاح والعمل لكل راغب من ابناء جلدته . ثم ماذا ؟

لقد وقف « بوكر » على سر النجاح من اول لحظة . لقد فهم الجوهر لا العرض . فهم ان المطلوب من العلم هو الاعداد الحقيقي لمعترك الحياة الحقيقي . فهم ان المدرسة يجب ان تكون صورة مصغرة من ميدان الحياة وانها يجب ان تخرج رجلاً للمزاحمة في مناكب الحياة باسلحة الحياة . فهم ان التعليم الظاهري لا يفيد بل يضر . فهم أن النظريات بحاجة الى العمليات فاذا فعل ؟

ان مدرستهُ بحاجة الى بنايات جديدة وعدد ومعدات . وادوات وجهازات . ومقاعد وحجرات . فلماذا لا يشترك التلاميذ في اعداد ذلك جميعه . بل لماذا لا يقوم التلاميذ بمختلف الصناعات سواء اكانت للمدرسة او لحاجات الاهلين ؟ لقد نفر بعض الآباء من خطته ولكن ارادته الحديدية نجحت في النهاية . وقد فشل في بناء قبة ضرب الطوب وغيرها اولا وثانياً ولكنهُ نجح اخيراً

لا امتهان في العمل . بل المجد كل المجد في العمل . وفي تاج العمل تقدم البشرية المطرد . وبقدر التضحية يكون الجزاء . لقد نام في العراء حينما كان طالباً وضاقت المدرسة بطلابها وقبل مع رفقته مكنى الحمام ارضاء لرغبة « ارمسترنج » في قبول عدد من السود يزيد عن مساحة المدرسة فلماذا لا يتقدم طلاب مدرسته بمثل نوع عمله

لذلك رأى ان يخلق على غراره هو وعلى خلقه هو وعلى مثاله ونشأته من تلاميذه رجالاً متدرعين بسلاح العمل وخلق التضحية مدربين على العمل والكفاح في الحياة بسلاح العمل

اجل لقد كلف بوكر وشجعان طلابه العديدين بكل انواع العمل . وافهمهم بطريقة عملية ان قذارة العمل تاج يشرف صاحبهُ . كلفهم ضرب الطوب ، وعمليات البناء . كلفهم مختلف انواع الصناعات والزراعات

لقد صمم « بوكر » على قرن العلم بالعمل . صمم على ان يتعلم الطالب النظريات من الكتب والعمليات من صناعات الوسط الذي يعيش فيه والذي سيعيش فيه . صمم على ان يخرج الطالب من معهده نافعاً لنفسه معتمداً على جهده مكتسباً رزقه من يديه ومن عقله ثم ثابر على ذلك الى ان تم على يديه انشاء مدرسة شاهقة البنايات والفروع للعلوم ومختلف الصناعات بها حوالي الاربعين معهداً وما يزيد عن الالف طالب وقد بنى طلبتها كنيسة لهم

١٢

وهل اكتفى « بوكر » بذلك ؟ . هل قنع باقادة الف طالب ؟

لقد رأى ان امته فيها ما لا يقل عن العشرة ملايين من ابناء جلدته . وهم قد خيم الجهل عليهم بجرانه . وهم في مثربة مودية بحالة مهلكة . ورأى انهم بحاجة الى رسل وهداة من خريجي مدرسته الذين اعتادوا العمل وقرنوا العمل بالعلم والذين اضحت التجاريب عقولهم والعمل ايديهم والذين تهذبت اخلاقهم ونبلت ميولهم . فبذل الجهد الجهيد في جمع المال لتلك الغاية . واسس المدارس الليلية والنهارية . وخرج رجالاً عاملين ونساء عاملات . وعلم الرجال الهندسة الزراعية والعلمية والعملية وشتى انواع الصناعات من مهمات البناء ومنتجات الزراعة كالحلين والحلوى وانواع الحدادات والخياطة والتصوير . كما علم النساء جميع ما تحتاج اليه المرأة في منزلها وحياتها الخاصة

من طريف تعليمه أن معملاً من معامل الزبدة والجبن اعلن عن حاجته الى عامل للزبدة فتقدم اليه شاب من السود من خريجي معاهد بوكر فرفض اصحاب المعمل استخدامه لأنه اسود وهم لا يشغلون الا البيض . فقال لهم الأسود اني جئت اليكم لا لتستخدموا لوني بل لتستفيدوا من عملي وتجربتي فسمحوا له بالمكث بينهم مدة اسبوعين على ان يحكموا بعدها

ثم عرضت زبدة المعمل من صناعة الاسود في السوق بعدئذ فتدرج ثمنها في الزيادة اسبوعاً بعد اسبوع . وزاد الاقبال عليها مما ادى الى استمساك القوم بعاملهم الأسود الجديد

وهكذا استمرت معاهد بوكر على تخريج الاكفاء من رجالها السود ونسائها السود . وكان لاحتكاك هؤلاء وهؤلاء من ابناء جلدهم وبناتجلدتهم احسن الآثار في ترقية شعبهم علماً وعملاً

١٣

وكم كنت اود ان اخاطبكم عن بوكر الخطيب وبوكر السياسي وبوكر المؤلف وبوكر المربي وبوكر الزوج وبوكر الاب ولكنني اجتزىء لكم بما اسلفته من حياته العاملة وأملي ان يكثر بيننا هذا الصنف من الرجال وان يعم في ربوعنا هذا الضرب من التعليم . وأملي ان يجد شبابنا من ارادته الذخيرة الصالحة لآمالهم الصالحة